

مكاني مع العراق الصامد في كل التاريخ

د. بهنام ابو الصوف

من المتعارف عليه بين خلق الله ان من حق الانسان السفر والتنقل
لاجل السياحة او التجارة او الدراسة او العمل او الاستشفاء ولا احد
يلوم انسانا يرغب في التفرج على الدنيا والترويح عن نفسه او ان
يجرب حظه في تجارة رابحة او يطمح لعمل يعدل فيه حاله . هذا حق
كفلته كل دساتير الامم وقوانينها واعرافها لمواطنيها لا يختلف فيه
اثنان . وهذا كله حسن ان كان الوطن مستريحا وكن اهله مطمئنين
على سلامته وامنه . لا تهدده مخاطر او يحاصره غزاة ظالمون نصّبوا
انفسهم اوصياء على الدنيا وساكنيها . عندئذ يغدو السفر لاجل
السياحة متعة مؤجلة . ويصير البحث عن فرصة عمل في الخارج .
خاصة لاصحاب الكفاءة والمعرفة والعلم والاختصاص ممن كفل لهم
الوطن عملا محترما ورزقا وفيرا برغم ضائقته . يصير تنكرا وجحودا .
وخروجا على القيم الموروثة في الفروسية والنخوة والاصطفاف مع
الاهل والعشيرة في الملمات والصعاب . تلج على هذه الخواطر وغيرها
كثيرا كلما طرق سمعي سفر احدهم ولحاقه بركب الباحثين عن عمل في
الخارج فيطبق صدري وينتابني الحزن واعتب بيني وبين نفسي على
هذا السفر الذي طبعت ارادته وتزعزع ايمانه بوطنه وفضل العيش
حيث لا حصار ولا خوف من احتمال تحدد العدوان ولا هموم البحث عن
الحليب والدواء ولا انتظار لقرارات يمن بها سيد واشنعن المتسلط على
مجلس الامن لتعيد له ولمن هو على شاكلته ما تشتهي النفوس وتطرب
له القلوب من الوان الرفاه وطيب العيش والطمأنينة حتى لو كانت على
حساب كرامة الاوطان وخنوعها .

وفي يوم ضاقت بي النفس واشتدت على الهواجس قصبت صديقا
عزيزا اثرا عندي . معروفا بحكمته وصبره وشدة ايمانه وتفأله .
اتلمس لديه جوابا لبعض ما صار يحيرني . بادرت بسؤال صاحبي عن
حاله وصحته . فاجابني بتفأله المعهود والابتسامة لا يبارق شفاهه
انه بخير والعمل لله .

قلت له . اسمعت عن بعض اصحابنا الذين رحلوا برغم تمنعهم
باحوال جديدة . هنا .

قال نعم .
قلت . سألني بعضهم لم لا يرحل صاحبك وهو ان رحل لا احد يلومه
ان ليس له عمل دائم ولا تربطه بجهة معينة رابطة . واننا نعلم انه
سيجد له مكانا مناسبا وعملا جيدا في الخارج لما يتمتع به من سمعة
علمية تدعمها تجارب ميدانية طويلة وله كثرة من الزملاء والمعارف
يرغبون في عمله معهم .

السفر

و حين الحجت بالسؤال رفع راسه ونظر الي طويلا ثم بادرني قائلا :
اذت تذكر يا صديقي انني قد اكملت تحصيلي العالي في واحدة من
ابرز الجامعات في الخارج . قلت اعرف ذلك جيدا وقد مضى عليه
سابقرب من ثلاثين سنة .

قال : وربما تتذكر ايضا انه بعد رجوعي من الخارج بمدة وجيزة
فاتحدثني احدي الجامعات المرموقة على الطرف الاخر من المحيط
الاطلسي للعمل لديها وبمرتب سنوي مغر في حينه . وقد اعتذرت لها
كما تعلم ربسبب رغبتي في العمل في ميدان اختصاصي في بلدي ورغبتي
ايضا في ان ينشأ اولادي في وطنهم لا في بلد غريب . قلت اعرف كل
هذا . ولكني ما زلت اجهل الاسباب التي دعكتك لتعتذر عن تلبية دعوة
جامعة اخرى في بداية الثمانينات لقضاء فصل دراسي فيها استاذنا زائرا
بعد ان كانت كل الموافقات والاجراءات الاصولية والرسمية قد اكتملت
لسفرك . قال بحرج ظاهر : لم اشأ ان المغادر وطني وهو والي تحت
عدوان يومي شرس يتلقى فيه اهلنا في كل انحائه القنابل والصواريخ
الايرائية الغادرة . قلت هذا حسن ولكن خبرني بالله عليك لماذا رجعت
عن قرارك في البقاء ستة اشهر في البلد الثاني الذي كنت فيه في اوائل
صيف عام ١٩٩٠ بعد ان كنت قد استجبت لطلب جهات جامعية
وثقافية هناك للاسهام في حلقات دراسية اكاديمية في اختصاصك على
مدى نصف سنة دراسية كما اخبرتني في وقتها في احدى رسائلك .
اجابني وهو يتلعم بالكلام خجلا : كيف كنت تريدني ان ابني
بعيدا عن الوطن والاهل وقد كانت تنقل لنا الاخبار ساعة بساعة ما كان
يحاك حوله من دسائس واستعدادات للعدوان بعد ان نجح في
استعادة ما كان قد اقتطع من جسده قسرا . عدت الى مشاركة الوطن
والاهل في المحنة ان جاءت .

قلت : عجيب امرك يا صديقي . لماذا هذا كله وانك كما نعلم مواطن
عادي لاعلاقة لك الان من قريب او بعيد باي عمل رسمي مدنيا كان او
مسكريا وان عمرك قد تجاوز ومنذ زمن السن المطلوبة للانضمام في
خدمة العلم .

نظر تحوي باشفاق وقال بنبرة يشوبها شيء من الحزن والعتاب :
اعلم يا صديقي ان الاصطفاك مع الوطن والاهل لا تتطلبه سن معينة
كما لا يلزمه الارتباط بعمل او جهة رسمية . انه الواجب يا صديقي
والشعور بالمواطنة الحقبة الذي رضعناه مع حليب امهاتنا ودرجنا
عليه في صبانا وشبابنا وعمق هذا الواجب وهذه المواطنة بعمق
جذورنا الممتدة بعيدا في تربة هذا الوطن بهذا كله سيبقى يا صديقي
مكاني . كما سيبقى مكان الملايين الطيبين من اهلنا . هذا في هذا
الوطن . العراق العظيم . الصامد في كل التاريخ .

(١) اني لا اصدق بالطبع بهذا النظر اولئك الناس الذين يعبرهم او يوقدهم
الوطن للعمل او التعليم في الخارج .